الإمتاع الخادم في الفن والأدب

بقلم الجنيدي خليفة

يرى دوركهايم « أن أفكار الانسان ليست ثمرة نشاطه العقلي فحسب ، بل ثمرة البيئة الاجتماعية التي يكون جزءاً منها ايضاً ، وان ثمة شيئاً يمكن ان يدعى (عقل الجماعة) وهو أكثر من مجرد مزيج مؤلف من عقول أفراد الجماعة ذاتها (١) »

ومهما يكن من حاجة هذا الرأي إلى الادلة الواقعية ، فان فيه جانباً من الصحة لا ينكره الناقدون للمذهب الاجتماعي . فقد جاءت علوم التاريخ والانتروبولوجيا والاجتماع مؤكدة لاهمية البيئة في تكوين سلوكنا وتفكيرنا واصطباغهما بصبغة ملائمة لديناميات المجتمع الذي نحياه ، فليس من الغريب أن يتكلم الناقدون عن علاقة فلسفة كالبراجماتزم مثلاً بالزوح العملية يتصف بها المجتمع الامريكي ثم يبدوا استعدادهم للاستغراب من ظهور فلسفة (ميتافيزيقية) في تلك البقاع ...

وواضح ان هذا لا يعني ان موقف الفرد من بيئته ليس إلا موقف التلقي والقابلية السلبية ، فهناك ساسة ومصلحون ورجال دين ومنظمات ... بل وحتى افراد عاديون قد ساهموا في مصير مجتمعهم بطريقة عملية . ولقد حفظ التاريخ لامثال هؤلاء نماذج لن نتمكن من إحصائها بسرعة ..

وقد يبدو ان طبقة ممتازة من « رجال التاريخ » لا تعمل بالجاذبية فحسب ، بل هي أيضاً تقود المجتمع . والواقع أن هذا التخصيص لا يخلو من الخطأ ، فحقيقة الأمر أن التأثير متبادل بينهما شأن أي عمل تعاوني متكامل . ولكن مما لاشك فيه أن تحسين حالة الفرد مادياً ومعنوياً يؤدي في الوقت نفسه إلى تحسين حالة المجتمع ذاته ... ومن ثمت فيجب الا نهمل احدهما ، والسواد في سبيل التفرغ للممتازين ، واعتبار كهذا قد يؤدي الى تحويل وضعية أدبنا وفننا إلى اعماق هذا السواد المضطرب ...

إننا لا نكون متجوزين حين نعبر عن الفرد بالعضو ، بل الواقع أنه استناد الى طبيعة علاقته : إننا حينئذ ننظر اليه باعتبار أن له وظيفة ما داخل هذا الجهاز الذي ندعوه بالمجتمع.

ويمكن ملاحظة ذلك التأثير المتبادل بين الافراد في مجالات واسعة . وعندما ننظر اليه من الوجهة الأدبية يجب — ووفقاً لطبيعة البحث — أن نخصّ من الافراد فريق الأدباء والفنانين والمفكرين ... ثم المركز الرئيسي الذي ينبعث منه تأثير هؤلاء ليؤثروا — بدورهم — فيه هو بالذات .

وليس تعيين هذا المجال بعسير اذا سلمنا بأن علينا أن نؤدي اكبر خدمة ممكنة للمجتمع — كل في ناحيته الخاصة . إن الامة العربية كلها ما زالت تعاني كثيراً من المقاومة الاجنبية ومن هذه الامتدادات الاقتصادية والثقافية والسياسية الخ ... الناتجة من جراء المقاومة ، وفي المغرب العربي حيث تشتد وطأة المستعمر المتمثلة في العمل على محو شخصيتنا القومية وتشويه تاريخنا ، وحيث يعاني الشعب من البؤس والمهانة والجهل والفقر والمرض توتراً حاداً عنيفاً .

لقد آن ان ننظر الى مختلف اقطار العروبة لا كوحدات مفككة ، ولكن ككل متكامل ؛ ونظرة كهذه تؤيدها المصلحة المشتركة كما تؤيدها الاصول الطبيعية والتاريخية ... يجب أن يعي الشامي والمصري والعراقي أن الجزائري اوالتونسي او المراكشي عربي قبل أن يكون (مغربياً).

هذا المجتمع الواسع المتعذب ، هذه الالوف التي تشرّد ، وتهاجر وتموت جوعاً وبرداً ومرضا ، ثم هذه الروح التي لم تستكن وإنما ظلت طامحة ، مؤمنة بكفاحها ... إن كل ذلك جدير بان يعين المنبع الغزير الذي يجب ان يغمس فيه قلم الاديب وريشة الرسام وآلة الموسيقار ... ان في ارهاف الحواس اليه لألهاماً نافعاً ناضجاً ، انه أسمى من ذلك الذي ينشدونه في « لون الاصيل ... »

من العجيب حقاً ان يوجد أدباء (كبار) لا يبدون فيما يكتبون تكيّفاً ملائماً لروح مجتمعهم الذي يحيونه ، وينصرفون بدل ذلك الى التنقيب عن قشور ضامرة لاتستحق بذل الجهل . لقد نسوا التطورات التاريخية واهميتها في تقييم الاشياء ..

انهم يعدون انفسهم أدباء ، مع أن وضعيتنا الاجتماعية قد فرضت علينا الا نقنع ، بل ألزمتنا الا نعتبر أدباً ذلك الذي لايساهم في خدمتها ، فليقنعوا حينئذ بانهم مؤرخون كلاسيكيون

---

(١) علم النفس الحديث ، تأليف الدكتور سرجنت ، تعريب منير البعلبكي ، ص ١٣

او اي شيء من هذا القبيل ما عدا الادب .

ان التشبث بالماضي لذاته — وان لم يشعروا بانه كذلك — عدم تكيف مع الحياة ، وبالمثل عندما تغرينا فكرة الرجل السابق لعصره فيضع أحدنا خطة لغزو نقوم به بعد التحرر! . حقا ان هناك جذوراً وامتدادات لا يمكن اغفالها ، ولكن يجب الا نجاوزها .

قد يقال ان تقييد الاديب والفنان بالخدمة الاجتماعية تقييد لحريته ، وهذا صحيح مبدئياً ، ولكنه لا يعني ابداً الانتقاص الذي يقصدون . الا اذا قلنا ان اي نشاط للمرء انما هو سداد وصلاحية ! وبداهة ان سلوكنا جسميا كان او شعوريا لا يخلو في جملته من الخطأ والتعسف والفساد على اية قيمة من القيم ، وكما نميل عادة الى الراحة وتحقيق شهواتنا وغرائزنا البدائية فقد نميل كذلك الى قراءة او انتاج القصص الغرامية وقصائد المغازلة الجنسية والى ادب « خرير الجداول » « واطباق الغيوم » . ولكن مما لا شك فيه ان انظمة المجتمع لا تسمح لنا بتحقيق تلك الميول الفجة ، المنافية لمبادئه واخلاقه ، ومثل ذلك الاديب الذي يضيع الوقت والورق والمجهود في مواضيع عقيمة تافهة ، انه يجب عليه ان يكبتها عن القراء ما دامت في حالتها البدائية بالنسبة الى الادب الخادم للمجتمع ، وهذه الحالة بدائية لا مجازاً بل حقيقة ، ذلك ان الاحساس بالجمال انما يبتدىء في مراحله الاولية بالتأثر بالاشياء الطبيعية ، وانه لموجود حتى في اكثر القبائل اغراقا في البدائية « مثلما هو موجود في اكثر الناس تمدينا ... بل انه يبقى حتى عندما ينطفيء نور العقل ، لان الابله والمجنون قادران على الانتاج الفني (الطبيعي) ، فخلق الاشكال او سلسلة من الاصوات التي تستطيع ايقاظ الاحساس بالجمال ، ضرورة اولية بطبيعتنا . فطالما تأمل الانسان بسرور الحيوانات والزهور والاشجار والسماء والمحيط والجبال (١) . »

وعلى العكس من ذلك الاحساس بجمال المثل والقيم الانسانية ، اذ انه يحتاج الى نضج نفسي وحضاري ، والى مرحلة من الاعداد الطويل : وهذا ما يفتقر إليه منتجو (الفن للفن) اجمالا ، اذا ان انتاجهم إنما يعبر عن حقيقة واحدة هي العجز عن الاحساس الجمالي بمعالجة اوضاع المجتمع ، ومن ثمت الهروب من مشاكل الحياة ، وان وجدت — نظرية الفن للفن —

(١) الانسان ، ذلك المجهول ، تأليف الكسيس كاريل تعريب شفيق اسعد فريد صفحة ١٦١

بعض المدافعين ، على أساس ان هذا اللون من الفن يتصل بالحياة اتصالا وثيقا مادام قد صدر عن الكائن الحي نفسه ! والواقع ان مثل هذا الدفاع لا يدلّ على اكثر من (تمييع) الدلالة بحيث تخرج عن المعنى المقصود من الادب الحياتي او الملتزم ، مثلما نقول عن عمليات التهويم والاحلام انها متصلة بالحياة . والواقع انها لكذلك بشرط ان نستبعد عنها كل عمل جدي فعال ؛ ومن البدهي انه يمكن تسمية اي شيء بأي اسم باعتبار انه اصطلاح . وهكذا عندما يكون المقصود من الالتزام تشخيص مجتمعنا وعلاجه بواسطة الادب والفن ... فان اروع رواية عن اهل « العالم الآخر » لن تكون من الالتزام في شيء ...

على ان هناك مدافعين « ما ورائيين » قد يكونون على براعة في التأويل ، الا انهم قد وقعوا في نفس الخطأ ، أي « تمييع الدلالة » فهم إذ يزعمون انه حتى ذلك الضرب من (الفن للفن) لا يخلو من خدمة اجتماعية — عرضية — يبنون المسألة على أساس انه يهب لنا راحة لا نجدها في كفاحنا اليومي ، وهذه تجعلنا أقدر على مواجهة الحياة ...

ان هذه النزعة الاجتماعية لا تكفي كمبرر لانصراف الاديب عن خدمة المجتمع ، وفضلا عن ذلك فانها لم تجعل من الادب اكثر من لعب الورق او مشاهدة حفلة او اي شيء آخر يهب الراحة والسلوى .

وغنيّ عن البيان أن الادب الملتزم لا يقنع بهذه الخدمة التافهة مـــا دام وسيلة مباشرة او قريبة الى تقدم المجتمع في جميع اوضاعه الاقتصادية والسياسية والثقافية ...

ومن المعلوم أن اعتباراً كهذا لا يعني البتة تجريد الادب من قيمته الذاتية ، أي المتعة ، ولكنه يعني التوسل بهذا التأثير الايحائي إلى الاقبال على نفسية المجتمع ومعايشته .

ذلك أن الامتاع في الفن والادب عنصر جوهري ، وهو الذي يميزهما عن سائر ضروب النشاط الفكري الاخرى ؛ ومن هنا يظهر خطأ القائلين بوجوب تجريد الفن من أية غاية غير ذاته ، بحجة المحافظة على (سموه) ؛ اذ أن مثل هذا الرأي يشير ضمنياً إلى أن الفن الملتزم خلو من الامتاع مـــا دام يستمد مادته من حاجات المجتمع ، فكأنما الامتـاع مقصور على مواضيع معينة لا على قدرة الخلق والابداع !

إنّ الكاتب القدير ليستطيع أن يخلق من ملاحظة المشردين والمرضى والفقراء ، ومن تلك الجثث التي استشهدت في سبيل

الفرقة الفدائية الاولى

[في الوطن العربي معاقل كثيرة للاستعمار ، وآلاف الفدائيين يستعدون لدك الحصون على رؤوس اصحابها]

« لا تقتربوا ...
الموت هنا لا تقتربوا ! »
... وضجيج الالات سياط تشدّ على الأذن ،
وصرير الاحذية السوداء تخط الظلم بلا وهن ،
« لا تقتربوا »
ودخان المعمل الوان من ذلتنا
يسري عبر النخل الحاني في قريتنا ،
وجموع العمال الحيرى من أخوتنا
سوط .. انفاس تضطرب
« لا تقتربوا »
المعقل مضمون للمستعمر باسم الوطن !!
رغم الحاقد رغم الزمن ،
للعين الزرقاء حقوق لا تُغتصب
سنظل هنا ..
وليهتف اصنام الوطن :
« عاش الذهب » ،
وتهامس شبان القرية في ظل الأنفاس الحرى
وتعلقت الأبصار على الأملاك تناجي السرّا !
« الارض لمن ... الارض لمن
اشلاء الاجداد الابطال زرعناها
ومن الدم والدمع المسعور سقيناها
الارض لمن ... الارض لمن
للعين الزرقاء عصرنا قلب الأمه
ألتغمر اقدام الباغين مقابرنا ؟
ونبيع على نغم (الدولار) منازلنا »
وتفجّر بركان يشتد من النقمة :
أهذا ناضلنا زمنا ؟
اهذا قدمنا ثمناً ؟ ،
« لا تقتربوا ... »
وتطايرت الانفاس على الشفق القاتم :
« لاتقتربوا .. خطر جاثم »
وعلى ضوء النجم الساري
بدمائهم العطشى كتبوا :
« الارض هنا للأحرار
وعلى جنح الفجر المخضوب سنلتهب
ناراً يعتز بها العرب
ناراً حمراء سنلتهب
أنتم .. أنتم فيها الحطب
الموت الموت لمن كتبوا :
لا تقتربوا ..
الموت هنا .. لا تقتربوا »

الخالص – العراق

عصام عبد علي

الكرامة والفداء اروع إمتاع فني إلى جانب الخدمة العامة ، وإن كان لا بدمن الاستشهادبالتاريخ فان لمحة عابرة إلى منتجي (الفن للحياة) من امثال فولتير وروسو ، وتولستوي لتكفينا جهد الاستقصاء؛ان احداً لا يشك في القيمة الادبية لآثار مثل هؤلاء ، كما لا يشك في ذلك الانقلاب العظيم الذي أدت اليه آثارهم تلك .

* *

نستخلص من هذا كله أن تحقق الامتاع وحده في الفن لا يكفي ، إذ أنه بمثابةالاطار العام الذي يكسبه حدودهالذاتية ، بل يبقى بعد تحقيقه اعتبار الخدمة الاجتماعية كوظيفة تطورية له ، لا يمكن الاستغناء عن عملها ، كما لا يمكن الاستغناء عن أعضائنا الضرورية ، إلا إذا ابدينا استعدادنا للرضا بالشلل والكساح .. ، وبالمثل فان الخدمة الخالية من الامتاع بقطع النظرعن قيمتها ، قد تكون سياسة ،او وعظاً ، اوفلسفة ... الخ الا أنها لن تكون من الأدب في شيء بمعناه المحدود الشائع ، وقدلا يوفق كل أديب الى تحقيق (الامتاع الخادم) فمايكتب فينتج فناً ركيكاً جافاً اشبه شيء بسرد الحوادث ومحاضر البوليس . قد يوجد هذا النوع الا انه لن يدل على أكثر من التقصير او القصور .

وبعد فان « الامتاع الخادم » ليس الا مذهب الالتزام في الفن والأدب منظوراً اليهما من الناحيتين الذاتية والوظيفية متكاملتين ، ومن ثمت فهو أبعد من ان يكون مجرد توفيق بين نظريتين مختلفتين .

تونس

الجنيدي خليفة

(من رابطة القلم الجديد)